المحاضرة الثانية

الفكر الجزائري القديم (دوناتوس النقريني)

ولد دوناتوس النقريني في القرن الثالث الميلادي في نقرين من أبوين أمازيغين ،وهم على الأرجح أنهم كانوا يعملون بالزراعة التي اشتهرت بها نقرين القديمة،حيث عثر المنقبون مؤخرا على آثار لمخازن ضخمة للزيتون تعود إلى تلك الحقبة ولاية تبسة،ونظرا لموقع نقرين الجغرافي الذي يربط نوميديا الجنوبية بقرطاج ،والصحراء بسيرتا ،فقط حط بها دون شك مبشرين مسيحيين وعابري سبيل من مختلف المناطق والخلفيات الفكرية

ما سمح لدوناتوس أن يحتك بالجميع منذ صغر سنه ،فقد أتقن لغة الرومان بالإضافة إلى لغته الكنعانية الفينيقية البونيقية [1] ()، ويعتبر من أهم الزعماء البرابرة الذين واجهوا الرومان بكل ما أوتي من علم ومن قوة ، وهو قس وراهب في قرية بربرية، وصار بعد ذلك أسقفا وزعيما دينيا كبيرا في إفريقيا الشمالية، وله أتباع كثيرون يدافعون عن المذهب الذي أسسه نظرية وممارسة ،وهو مؤلف كتاب ديني تحت عنوان"الروح القدس".

حركة الدوناتيّة باللاتيني Donatismus ؛ باليونانية (Donatismós هي حركة دينية مسيحية ظهرت في مقاطعة أفريكا الرومانيّة وازدهرت في القرنين الرابع والخامس،وترجع جذور هذه الحركة إلى الاضطهاد الديقليديانوسي الكبير والذي بلغ أوجّه بالمغرب القديم في الفترة بين 295م-299م، حيث أمر الإمبراطور الروماني "دقليديانوس" بهدم الكنائس المسيحية وعدام كتبها المقدسة، وتم تعذيب رجال الدين وكل المتمسحين بكل

[1] دوناتوس (الثائر النمودي الذي أنهى وجود الكاثوليكية في افريقيا) ،محمد دومير ،عماد سعودي

ألوان العذاب، وهو ما أدى بالكثيرين إلى الارتداد والعودة إلى الوثنية، عندها حدث اختلاف بين رجال الدين حول قبول أو رفض المرتدين، فقام الأساقفة الرافضين لعودة المرتدين إلى المسيحية بالانفصال وتأسيس كنيسة تضم الذين صمدوا وتمسكوا بدينهم، وقد أطلقوا على أنفسهم تسمية "القديسين الأطهار" في إشارة واضحة لإدانة معارضيهم.

انتشرت الحركة بين المسيحيين الأمازيغ في الجزائر والمغرب وتونس الحاليّة. حظيت الحركة بقوة في عهد القديس أوغسطين في نهاية القرن الرابع، واختفت بعد الفتح الإسلامي للمغرب في القرن السابع والثامن.

ظهرت الثورة الدوناتية علانية عام 305 م في شمال إفريقيا وبالضبط في نوميديا إلا عندما تبنى الإمبراطور الروماني تيودوز العقيدة المسيحية دينا رسميا للدولة الرومانية منذ بداية القرن الرابع، فاستغل دوناتوس الفرصة فأسس مذهبا مسيحيا أمازيغيا مستقلا ألا وهو "المذهب الدوناتي". فأقبل الأمازيغيون على هذا المذهب الجديد للتخلص من نير الاستعمار الروماني، ومن الظلم والعبودية والذل ،وسبب تسميتها بالدوناتية هو ما اصطلح عليه رجال الدين الكاثوليكيين أمثال: "أوبطا الميلي" و"القديس أوغسطين"، حيث سموها باسم "القديس دوناتوس"، مؤسس الكنيسة الإفريقية، وهو القديس" دوناتوس الأكواخ السود "من منطقة "باغاي" النوميدية والتي تقع بين "تيموقادي وماسكيلا" أي خنشلة حاليا.

الأمر الذي دفع بالأمازيغيين إلى جعل كنيستهم ذات طابع قومي،تسعى لحماية حقوق السكان الأصليين من ظلم وبطش القوات الرومانية والاستغلال البشع للأرستقراطيين ورجال الدين الكاثوليك الروماني. وقد انشق دوناتوس عن المذهب المسيحي الذي أراد الإمبراطور الروماني تيودوز فرضه على الشعوب الخاضعة لحكمه منذ تبنيه له،وقد تسبب هذا الانشقاق في مجابهات دموية كثيرة بين الكنيسة وجيش الإمبراطور المتحالفين ضد الدوناتية والثوار الريفيين الذين وجدوا في هذه الحركة منفذا للدفاع عن كينونتهم ،استمرت تقريبا حتى مجيء الوندال لشمال إفريقيا سنة439م".

يرجع ظهور الحركة الدوناتية إلى مجموعة من الأسباب أبرزها :أن الأساقفة النوميديين طعنوا وعلى– رأسهم الجثليقوسوكوندوس في سياسة أسقف قرطاجة" كايكيليانوس " –،بعض الأساقفة الذين انتخبوه في هذا المنصب ،بتهمة تسليم الكتب المقدسة والأواني الكنسية إلى السلطة الرومانية الوثنية أثناء" الاضطهاد الأكبر "في عهد الإمبراطور "ديركليتيانوس 284 - 303،ظل الدوناتيون يصفون أعدائهم الكاثوليك بكنيسة" المتخاذلون" (1936, p. 657).

لقد كانت الحركة الدوناتية حركة دينية مناهضة للسلطة وللكنيسة المتواطئة معها، وقد ظهرت في صورة تيار ديني مستقل رفض جميع أشكال التعاون مع السلطة، والخضوع لتعليمات الإمبراطور الذي استغل المسيحية لأغراض سياسية، وقاموا بإفراغها من محتواها وجوهرها الأخلاقي والاجتماعي. وعليه سعت للحفاظ على هذه الروح الأصيلة التي من أجلها ضحوا. فقد ابرزوا موقفا متطرفا من المرتدين والمتخاذلين ،ورفضوا التعامل معهم بأي شكل من الأشكال بعد انتهاء الاضطهاد سنة 303م (Warmington (B.H.)1954, p.78)،وكان من ضحايا هذا الاضطهاد شهداء قرية" أبيتينا) (Abitina، قرب قرطاجة في 33 فيفري سنة 301 م،الذين اتهموا بعقد اجتماع الثنوعة([1] Beschaouch (App. 255, 1976).

فللحركة الدوناتية خلفية رفية جمعت جمهورا متذمرا لسوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية شكلوا ما سمي "بثورة الفلاحين"، حركة معارضة سياسية تطالب بتحسين الوضع القائم،شكل دوناتوس حركة ثورة دينية واجتماعية وسياسية، قامت بدور تارخي هام ما بين 4 قبل الميلاد و429 ميلادية. وقد انشق دوناتوس عن المذهب المسيحي الذي أراد الإمبراطور الروماني تيودوز فرضه على الشعوب الخاضعة لحكمه، منذ تبنيه له سنة 391م، وقد تسبب هذا الانشقاق في مجابهات دموية كثيرة،استمرت تقريبا حتى مجيء الوندال لشمال إفريقياسنة439م(العربي اكينح ، 2003م، ص:24).

وقاد دوناتوس في إطار ثورته الدينية، مجموعة من رجال الكنيسة الأمازيغيين الرافضين للسلطة الرومانية، وساهموا في ظهور ما يسمى بالثورة الدوناتية نسبة إلى دوناتوس (عباس الجراري72:ص، 1982) ،وقد كان هذا الأخير يدعو إلى مذهب ديني جديد يقوم على إقرار المساواة بين الناس، ويعمل على مساعدة الفقراء ولا يعترف بأية سلطة غير سلطة الإله الخالق، وكان يأمر الأمازيغيين بطرد كبار الملاك من أراضيهم وأصحاب النفوذ من المسيحيين الكاثوليك من بلادهم. وقد انتشرت الدوناتية في الكثير من الولايات والممالك الأمازيغية وخاصة في ولاية أفريكا وولاية نوميديا ،وتشكلت ميدانيا مجموعة من التنظيمات العسكرية التي كانت تهاجم مزارع الأرستقراطيين الرومان لتحرير عبيدها وأقنانها المظلومين،. إن الصفات القيادية والخطابية سمحت لدوناتوس بتشكيل قاعدة قوية ومترابطة من الأنصار من مختلف المستويات، أساقفة ورجال دين وفلاحين وعمال من العامة. فتشكل خلفه حزبا معارضا، كان الأكثر شمولية وانفصالية في كل العصور التي عاشتها الكنيسة منذ المسيح عليه السلام وإلى اليوم(Henry E.F. Guericke. (1857). p278) بيد أن هناك من الباحثين من يقسم الحركة الدوناتية إلى مجموعتين:

- مجموعة دوناتية تستغل الدين لتحقيق مصالحها ومآربها الشخصية، وهي عصابة من العبيد الأمازيغيين المتوحشين الذين يثورون ويغتصبون وينهبون قصد الوصول إلى أطماعهم المادية.
- ومجموعة أخرى من الدوناتيين الذين حافظوا على مبادئهم الأخلاقية ومعتقداتهم الدينية ينتهزون الفرصة السانحة لمجابهة الرومان ضمن رؤية دينية وسياسية معقولة ومقبولة.

وهكذا تحولت الحركة الدوناتية إلى عقيدة نضالية توارثت الأجيال اعتناقها والدفاع عنها، وصارت تشكل رصيدا روحيا ونضاليا وعنصرا حيويا من العناصر المكونة لشخصيتهم التاريخية المتميزة بالروح الاستقلالية والنزعة نحو التحرر من القيود الأجنبية،وقد كانت

حركتهم سياسية ترمي إلى التحرير، متقمصة في ثوب حركة دينية، ظلوا محافظين على قوتهم وصلابتهم، يترقبون سنوح فرصة للانقضاض على أعدائهم،وأعظم أسباب هذا الهيجان هو النظام الاستعماري الروماني الذي ملك الأرض بيد ثلة منتفعة، وحرم منها جماعة الناس(أحمد توفيق المدني، 1926م، ص:114-117.)

وقد اعتمدت على تهجمات أكبر مناوئيها القديس أوغسطين ،هذا الأخير الذي كرس جزءا كبيرا من اهتماماته الدينية في محارة ومجادلة الدوناتيين، وقد كتب عدة مؤلفات كتبها ضدهم، ومن أهمها "أعمال مؤتمر قرطاج "وهو تقرير حول حوار دار بقرطاج خلال عام 411 م بين الدوناتيين والكاثوليكيين. وكتاب «ضد گاودنتيوس»، وهو موجه إلى أحد الدوناتيين الذي كان أسقف تيمگاد التي كانت معقلا للدوناتيين بجبال نوميديا القديمة في الفترة التي عاش فيها أوغسطينوس .

انتشر هذا التيار الديني التحرري بين شريحة كبيرة من سكان المنطقة ، والذي حملت مبادئه مواقف معادية الاحتلال الروماني للمنطقة، وهو الأمر الذي دفع بالسلطة إلى اعتماد القوة القمعية وصدار قوانين وعلانات تعمل على القضاء على هذا التوجه وطمسه بأي طريقة، وقامت الأنظمة الإستعمارية إلى «إعلان اللائحة ذات ألاثني عشر بندا التي تمنع فيه التعريض من قريب أو بعيد بالإمبراطورية، أو القادة أو الأغنياء أو الأسر العريقة أو مؤسسات الدولة ، وذلك من أجل إفشال أفكار كانت تبدو مقلقة للآخرين، وهو أمر يبرره اغتيال وتصفية رواده وحراق الكتب المحظورة الحاملة للفكر الدوناتي.

تعرض الدوناتيون إلى أول اضطهاد في عهد الإمبراطور" قسطنطين "عندما أصدر قانون سنة 333م الذي يقضي بمصادرة الكنائس الدوناتية وكل الأماكن التي كان يجتمع بها المنشقون ونفي زعمائها ،بهدف تصفية الدوناتية .لذلك أمر الإمبراطور محافظوه بضرورة تطبيق القانون بصرامة ،حيث قامت السلطة السياسية مع رجال الكنيسة الرسمية بمنع الدوناتيون من دخول الكنائس والاعتصام بها ،فما كان على الدوناتيون إلا مواجهة تلك

الإجراءات بالدفاع عن كنائسهم ،وحدثت مواجهات عنيفة في عدة كنائس في قرطاجة أسفرت عن قتل العديد من المتعصبون –على حد قول مونصو-،ودفنوا في نفس الكنائس التي سقطوا بها قتلى (Augustin (St, p. 5) .

وقد توفي دوناتوس في335م

قائمة المصادر والمراجع

-Augustin (St.), Epist., XLIV. 5, 12 ; XXII ;Mesnage (J.P.), l'Afrique Chrétienne.

- Beschaouch (A.), 1976C.R.A.I», la localisation d’Abitina

- Henry E.F. Guericke. (1857). Manual of church history. W.F. Draper. New york.

-أحمد توفيق المدني: **قرطاجنة في أربعة عصور**،طبعة تونس، 1926م.

-العربي اكنيح: في المسألة الأمازيغية، أصول المغاربة، مطبعة آنفو- برانت، فاس، المغرب ، الطبعة الأولى ، 2003م.

-**عباس الجراري**: الأدب المغربي من خلال قضاياه وظواهره، الجزء الأول، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الثانية ، 1982

- Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, Hachette, Paris, 1936.

- Warmington (B.H.), The North African provinces from Dioclétian to the Vandal conquest, Cambridge, 1954.